

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مقياس : أدب مغاربي حديث

الفئة المستهدفة : طلبة الماستر

تخصص : أدب جزائري

مطبوعة دروس على الخط

الدكتور : خالد وهاب

قضايا الرواية المغاربية (01)

تمهيد :

تعدّ الرواية المغاربية جزءا من الرواية العربية ، وأحد الروافد المهمة التي طوّرت هذا الجنس الأدبي الذي عرّف تغيرات شتى على مستوى الأشكال والمضامين ، لذا فإن طرح قضاياها يرتبط ارتباطا ناجزا بوجود موضوعي وآخر ذاتي ، حيث يتعلق الوجود الموضوعي بقضايا المجتمع العربي ؛ أي كيف تمثلت وشخصت الرواية عوامله وقضاياها كقضية الرواية بالتاريخ والتراث ، وبالغرب وبالعصر الذي نعيشه ، وهل استطاعت تحقيق التفاعل مع الوجود؟ هل جسّدت رؤية ما للإنسان العربي في العصر الحديث؟ وكيف قدّمتها؟

أما الوجود الذاتي فيتعلّق أساسا "بتقنيات وآليات الكتابة والتلقي ؛ أي البحث في نطاق خصوصياتها التعبيرية والجمالية ." (1)

إنّ التعرض للقضايا المتعلقة بالوجود الموضوعي والذاتي لا بدّ أن يمر عبر استقراء المسار التاريخي للرواية العربية ولأنّ الإمام بجميع المضامين والأشكال التي أثارها هذا الجنس الأدبي - الحديث نسبيا- يعتبر ضربا من المستحيل فإننا سنركّز جهدنا على تلمس وإثارة قضية محورية شكّلت ملمحا بارزا في الخطاب الروائي العربي ، وهي قضية (اللقاء بالآخر) ، فيا ترى كيف تمثل هذا الجنس الأدبي هذه القضية ؟ وما هي المرجعيات التي ساهمت في تشكيل الخطاب الروائي المغاربي ؟

1) مرجعيات الخطاب الروائي العربي:

أ- من حيث المضامين (قضية اللقاء بالآخر):

إنّ انفتاح المجتمع العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، على الأفكار الحديثة التي سادت المجتمع الغربي . أدى إلى تزايد الاهتمام بمشروع الحداثة العربية ، فبين الأفكار وعمليات التغيير الاجتماعي والثقافي ثمة وشائج عميقة ، تتضح من خلال تأثير تلك الأفكار الحديثة المستوردة ، والتي أسهمت في الكشف عن تلك الهوة العميقة بين غرب متمدن وشرق ضلّ طريقه نحو الحداثة . ويُرجع معظم الباحثين والدارسين بدايات بروز هذه الظاهرة في الفكر العربي الحديث ومن بينهم الباحث "محمد فهمي حجازي" إلى الرحلة التي قام بها "رفاعة رافع الطهطاوي" سنة 1830م ، والتي أثمرت كتابه المسمى (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)⁽²⁾

حيث كشف هذا الشيخ الأزهري عن مظاهر التحضر والتمدن ، بداية من التخطيط المعماري ، إلى أغذية أهل باريس وعاداتهم في المآكل والمشرب ، وصولاً إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كما قام بترجمة الميثاق الفرنسي لسنة (1831) والتعليق عليه ، وفي هذا الصدد يقول :

"...إذا تأملت رأيت أغلب ما في هذه الشرطة "الميثاق، الدستور" نفيساً... فسائر الفرنسية مستون قدام الشريعة ، فإنّ لها تسليطاً عظيماً على إقامة العدل وإسعاف المظلوم ، وإرضاء خاطر الفقير بأنّه كالعظيم نظراً إلى إجراء القوانين... وهي الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحضريّة . إنّ الحاكم عندهم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يعرض بها أهل الدواوين . " (3)

وهكذا تواتر إنتاج المفكرين والأدباء العرب . ممّا أدى إلى بلورة مناخ للسّجال ، والحوار حول القضايا الأساسية في مشروع الحداثة العربية كبلورة الكيان ،⁴ الهوية ، وعي الذات (الفردية والقومية) ، وعي الآخر...⁽⁵⁾ وقد كانت الرواية العربية عبر مسارها التاريخي بمثابة الأرشيف الحافظ لأهم التغيرات والتحويلات المفصلية التي مرّت بها هذه المجتمعات . بداية من التقارب الحاصل بين الذات العربية والآخر ، والذي جسّدته روايات "الرعيّل

الأول "كرواية" عصفور من الشرق "لتوفيق الحكيم (1938م) ورواية "قنديل أم هاشم" (1945م) ليحيى حقي ورواية "البيضاء" ليوسف إدريس (1970م) و"نجمة أغسطس" لصنع الله إبراهيم (1973م) من مصر ، ومن سوريا رواية "وداعا يا أمافيا" (1960م) لشكيب الجابري و"ثائر محترف" (1961م) لمطاع الصفدي ، و"شتاء البحر اليابس" (1965م) لوليد إخلص ، و"الجائع والإنسان" (1974م) لعبد الله آل شلبي ، و"المغمورون" (1979م) لعبد السلام العجيلي... ومن لبنان رواية "الحي اللاتيني" (1954م) لسهيل إدريس ، ومن السودان رواية "موسم الهجرة للشمال" (1967م) لطيب صالح⁶ هذا بالإضافة إلى مجموعة من النصوص الروائية المغاربية ، والتي وإن لم تكتب باللغة العربية لظروف تاريخية معروفة ، إلا أنها حازت فضل السبق في تجسيد لقاء الذات العربية بالآخر (المستعمر) نذكر من بين هذه النصوص رواية "نجمة" لكاتب ياسين (1956م) و"الحريق" (1954م) و"الرب في بلاد البربر" (1970م) لمحمد ديب "الأرض والدم" (1953م) "الابن الفقير أو النجل الفقير" (1954م) لمولود فرعون و"أبناء العالم الجديد" (1962م) لآسيا جبار ، وهي نصوص جزائرية ، ومن تونس نذكر رواية "السعار في الأحشاء" (1975م) لمصطفى التليلي ، ومن المغرب الأقصى "الماضي البسيط" (1977م) لإدريس الشرايبي...⁽⁷⁾

أما الجيل الثاني من الروائيين العرب فقد سار في الاتجاه الجديد المعاكس الذي أخذ يبرز منذ السبعينيات. هكذا نرى روايات غسان كنفاني ، نبيل خوري ، جبرا إبراهيم جبرا ، إميل حبيبي ، سميح القاسم ، سحر خليفة ، محمد زفزاف، كمال القلش ، حنا مينة تعايش هزيمة 1967م وسواها في مركز النحن (فلسطين والضفة الغربية) وفي حضرة الآخر (الغزو الاستيطاني الصهيوني المتلبس بالحضارة) والسمة المشتركة التي ميّزت الخطاب الروائي ضمن هذه المرحلة التاريخية ، هي فكرة الانهزامية أو الشعور بالدونية أمام الآخر ، غير أنّ الشيء الذي يجب الإلماح إليه هو الخطوات العملاقة التي خطاها الروائي العربي ليحسد تفتحاً أوسع وأعمق لعملية استيعاب الذات والعالم ، بحيث أبدى استعداداً لمعرفة الآخر أكثر فأكثر .⁽⁸⁾ ولأنه لا يمكن استيعاب هذه المسألة المعقدة بشكل واضح إلا من

خلال إيراد نماذج فقد ارتأيت أن أنتخب رواية "نجمة" للروائي الجزائري "كاتب ياسين" كأ نموذج مجسد لصورة الآخر ومعبر عن الوعي الذي طبع الشخصية العربية في مرحلة من مراحلها التاريخية

• رواية نجمة لكاتب ياسين (1929/1989م):

نشرت هذه الرواية المكتوبة بالفرنسية سنة 1956م بدار النشر الفرنسية du seuil ، وقد ترجمتها إلى العربية السيدة "ملكة أبيض العيسي".

نجمة عمل متميز لا يمكن الإدعاء باكتناحه ، ولا سبر أغواره . اكتمل بعد تحمّر عسير ، وتحوّلات عميقة شهدتها الجزائر في فترة حرجة من تاريخها النضالي .

ظهرت رواية نجمة فجأة كرمز للهوية الجزائرية الممزّقة ، وفرضت نفسها كرواية من الروايات المشهود لها في ذلك القرن.

جسدت هوية الفرد وحققت مستوى ثقافي لمجتمع اّحت فيه كل المقومات الأساسية لوجوده.

تمثّل رواية نجمة وثيقة هامة للحرب الجزائرية والاستيطان الفرنسي لها ، و الذي دفع بها إلى الإنعتاق ، وكانت أحداث الثامن ماي 1945م مفتاحها للانطلاق.

لقد تبني كاتب ياسين موقفا متميزا في كتاباته ، فهو يبحث عن المواطن الأم مشخصا إياه في شخص امرأة يسميها "نجمة" وتصبح الجزائر حقيقة مجسدة ، وتكون نجمة بمثابة روح البلاد التي تسري ، والحادثة التي أثرت تأثيرا بالغا على أعمال ياسين الأدبية هي مذابح سطيف ، وكانت الكتابة هي الأسلوب النضالي الذي اختاره في نصرة القضية الوطنية الجزائرية .

"هي روح الجزائر الممزّقة من البداية ، والمهددة بمختلف التوترات والتمزّقات الداخلية" كما وصفها كاتب ياسين في بعض تصريحاته.

هي رواية وشعر وملحمة في الوقت نفسه ، تمزج بين الأسطورة العشائرية والسرد المتحرّك ، وبين الحوار الداخلي الذي يُتَوَّر الوعي الداخلي ، ويدفع إلى التحرك الواعي للتاريخ ، "فنجمة ليست أبداً رواية شخصيات بقدر ما هي رواية شعب كافح ضد الاستعمار وقوى الرأسمالية ، وعليه فإنّ بطل رواية "نجمة" مزيج من الناس والزّمن والفعل مجسداً "الذات الوطنية" مقابل "الآخر" الغرب المحتل الامبريالي، كما أنّها تنعكس بشكل أو آخر على كلّ الشعوب التي تناضل من أجل افتكاك حريتها"⁹

✓ مقتطف من رواية نجمة :

" لقد شاءت العناية الإلهية أن يكون لمدينتيّ اللتين أحبهما،أطلالهما القريبة ، في غسق الصيف نفسه ؛ على مقربة من قرطاجة . وما أظنّ أن في العالم كله مدينتين تماثلانها... مدينتان شقيقتان في الروعة والحزن . لقد شاهدتا قرطاجة تلتهب ، وسالامبو أميرتي تختفي ، في ليلة من حزيران ، إسودّ فيها عقد الياسمين تحت قميصي ، بين قسنطينة وعنابة التي فقدت فيها النوم ، لأنني ضحيت بهوّة الرومل من أجل مدينة أخرى ونهر آخر ، في إثر الغزاة الشاردة التي كانت تستطيع وحدها أن تنتزعني من ظلال الأرز ، من الأب القليل عشية ولادتي ، في المغارة التي أستطيع وحدي أن أراها من الشرفة جاثمة هناك وراء الدّرى المُعطرة...

وغادرتُ أطلال ((سيرتا)) (*) مع والد المجهولة ، إلى أطلال ((هيون)). وماذا يهم... إن كانت ((هيون)) قد فقدت مجدها ، وإن كانت قرطاجة قد دُفنت ، وسيرتا تتوب إلى ربّها ونجمة قد أزيل بهاؤها؟... إن المدينة لا تزدهر، والدّم لا يتبخر هادئاً مستريحاً إلا ساعة السقوط! ها هي ذي قرطاجة الضائعة تستفيق ! وها هي ذي هيون تبعث ! وسيرتا تدرج بين الأرض والسّماء... ها هي بقايا الماضي الثلاث تعود مع غروب الشّمس... إنّها أرض المغرب!"¹⁰

وإذا كنا قد ركزنا أثناء تتبعنا لمسار الرواية العربية على أهم حدث ميّز الخطاب الروائي العربي وهو (اللقاء بالآخر) فإننا سنكون قد تجنينا على بقية النصوص التي لم تطرق هذه القضية المحورية . وركزت اهتمامها على طرق جوانب أخرى ، ولأنّ تتبع المضامين التي تناولتها الرواية العربية ، يعدّ ضرباً من المغامرة التي لا يمكن لأيّ دارس أن يدّعي بأنّه قادر على الإمام بخيوطها المتشعبة والمتشابكة . فإننا سنكتفي بهذا القدر لنعرج رفقة قارئ هذه المحاضرة إلى قضية أخرى نراها على جانب كبير من الأهمية ، وهي قضية الآليات الفنية التي وظّفها الخطاب الروائي العربي لتجسيد واقعه.

ب- من حيث الآليات الفنية :

حاولت الرواية العربية بشكل عام الاستفادة من إنجازات العلوم الإنسانية ، ومن نظريات النقد ، وعلم الجمال . لتمارس فعل السؤال وآفاق التجريب ، وذلك عبر إيغالها في عوالم السرد المختلفة ، بمعنى أنّ هذه الرواية قد تأسست على مرجعين مهمّين أسهما في تشكيل ملامحها:

الأول غربي : وقد مثّل رافداً مهمّاً في بلورة المناحي الفنية والجمالية في النص الروائي العربي .

الثاني محلي : ويعدّ مرجعاً استفاد كتاب تلك النصوص من واقعهم المعيش ، ومن إفرازات المرحلة التي تستوجب خلق فضاءات خاصة بهذه الرواية في أقطارها.

أمّا بالنسبة للرواية المغاربية ، فيمكن إضافة مرجع ثالث تمثّل في تأثرها بالنصوص التأسيسية المشرقية بفعل التواصل بين هذه الأقطار ، وكذا التقاطع الموجود بين هذه المجتمعات. " (11)

وقد طرحت الرواية العربية عديد الإشكالات المتعلقة بالمضامين ، وكذا الأشكال مواكبة التحوّلات والتّغيرات التي مست المجتمعات العربية . فبالنسبة للوظيفة الإحالية للنصوص ، فقد أسفرت على بروز حركتين ، ترتّب عنهما انبثاق جماليات المباينة وتمثّل في:

- تحويل وتغيير طرائق الإحالة في النص الروائي ؛ أي تحديد العلاقة الموجودة بين النص والواقع.

- تحويل في البنية الروائية ، وما تنطوي عليه من العناصر السردية المختلفة ، والتقنيات الموظفة في انجاز

الخطاب الروائي .

وعلى هذا الأساس نكون إزاء آيتين لتمثيل الواقع :

الأولى : (الكناية/المجاز المرسل) وتفسح هذه الآلية المجال لبروز الوظيفة الإحالية ؛ أي نقل الواقع فنيا مع زاوية

ضيقة من الانحراف .

الثانية : (الاستعارة) وهي الآلية التي تسعى إلى تدمير علاقة اللغة بالمرجع ، وتتيح تبير الوظيفة الشعرية /الجمالية

للخطاب .

وقد تمثلت الرواية العربية في بداياتها الجنيبة استثمار آلية الكناية ، ذلك أنّ الحديث عن العلاقة الكنائية بين النصّ

والواقع ينطوي على أنّ:

- النصّ جزء من الواقع ، أو انعكاس له وتبصير لبعض جوانبه على الورق ، وكلّما اقتربت الصورة من الواقع زادت

قيمتها وعظم تأثيرها . وتترتب على ذلك جماليات المماثلة والتشاكل في علاقة النصّ التقليدي مع العالم.⁽¹²⁾

أمّا الرواية العربية المعاصر فقد اتجهت نحو القطب الاستعاري ، حيث مجالات الانزياح والاختلاف والفجوات

الشاسعة بين اللغة والواقع ، حيث أنّ الناص لا ينفك عن ممارسة لعبة المماثلة والاختلاف ، عبر امتصاص

(العالم/الواقع) وصبوغه في مساحات نصيّة لها استقلاليتها عن السياق المرجعي بنفس الوظيفة المرجعية نسبيا لإنجاز

واقع جمالي على تخوم الواقع الحياتي ، وبهذا المعنى يفتح النصّ الروائي المعاصر في فضاء احتمالي لا قطعي

اختلافي لا تماثلي ، تخيلي لا واقعي . وبهذا المعنى أيضا يُدشّن النصّ الجديد فلسفة الاستعارة من حيث تقديمها

احتمالات دلالية أكثر لعالمنا.⁽¹³⁾

وبعد تعرفنا على مرجعيات الرواية العربية والآليات الفنية التي وظّفها الروائيون من أجل تمثيل الواقع نعرج الآن.سوية لإثارة قضية ظروف نشأتها في المغرب العربي.

• نشأتها في المغرب العربي:

التأثير والتأثر أضحيا اليوم رافدا من روافد كل تطور علمي أو إنساني .ولعلّ مجال العلوم الإنسانية قد شهد هذا التمازج والتلاقح بفضل تسارع الأحداث ،وتنوّع أغراض النقد . والرواية المغاربية كان لها الحظ الأوفر كي تتفاعل بشكل جلي مع حركة تطوّر هذا الجنس السردي في أوروبا ، نظرا للظروف السياسية التي مرّت بها المنطقة في تاريخها الحديث والمعاصر ، ممّا أثر في بنية المنطقة وبالأساس الناحية الثقافة ، من خلال ازدواجية اللغة (عربية/فرنسية) والاشتغال على أجناس القص الغربي (القصة القصيرة^(*)والرواية بالأساس) وهما نوعان أساسيان مستحدثان في الثقافة المغاربية المعاصرة ، يضاف إلى ذلك تأثر هذا الأدب بمختلف المناهج الأدبية والمدارس النقدية ، والتيارات الفكرية والفلسفية التي ظهرت في الغرب الأوروبي.⁽¹⁴⁾ وهذا رغم ما يتوفر عليه رصيد هذه الأقطار التراثي من "غنى الأدب الحكائي والشفوي أو الإخباري ، و تنوعه وكذا تجذره عبر الأمم والحضارات التي مرّت بها هذه الجهة ، وأسهمت في إثراء روافد المخيلة الشعبية ، ومدّها بمرجعيات حكائية غاية في التنوع."⁽¹⁵⁾

ويمكن الحديث عن مراجع لتأسيس هذه الرواية تبدأ مع مطلع السبعينيات وبداية الثمانينات ، حيث أضحى هذا الجنس الأدبي يشقّ طريقه نحو الأفضل ، كما أصبح الاهتمام به جليا على مستوى التأليف والنقد الأكاديمي بعدما كانت الرواية قبل هذه الفترة لا تبحر المحاولات الفردية ، والانطباعات الذاتية ، كالسرد المتعلق بالسير الذاتية والترجمية ، والموسوم بقصور الرؤية الفنية والمؤسسة أصلا على فشل في تمثيل أبعاد التجربة الجمالية والحياتية وما فتى هذا الجنس الأدبي في مختلف بلدان المغرب يحدث تراكما متواترا خاصًا ، وقد أصبح يشغل منزلة مهمّة

مقارنة بالأجناس الأدبية التقليدية ، كالشعر والمقالة والقصة والمستحدثة كالقصة القصيرة والمسرح ، وذلك بتحقيق المتن الروائي تطورا متناميا من حيث الكمّ والكيف ، واكتسابه لقاعدة قراء ما فتئت هي الأخرى تتنامى بفضل تقدّم النقد ونظريات التلقي ، وتطور علاقة النص الفكرية والفنية والوجدانية بمراجعته ، وذلك بتطور هذا المرجع تاريخيا واجتماعيا . على الرغم من كون الخطاب الروائي في هذه الأقطار قد طرح - كغيره في أقطار المشرق - مسألة التأصيل على خلاف الشعر المتجذر في التراث العربي من حيث الإبداع والدراسات النقدية ، وبالتالي فإن جنس الرواية في هذه الأقطار ظلّ يبحث عن خصوصيته أو حتى هويته ، لا من حيث الإبداعية فحسب ، بل من حيث اشتغاله على حقول مختلفة من القضايا الاجتماعية والسياسية لتلك الأقطار ، حيث أضحت النصوص السردية هي الأقدر على احتواء تغيرات تلك المرحلة. وظلت النصوص الروائية الأولى تمثل فترة أهم ما يميّزها ويجددها هو صحو وتفاعل الوعي الوطني ، الذي طفق نبضه يشتدّ ويتسارع وفق إيقاع جديد ، في مواجهة الظاهرة الاستعمارية التي قويت شوكتها ، بحيث تبلور هذا الوعي أكثر ، وتجسد في إطار حركة وطنية سياسية لها أساليب وطرائق مغايرة للسبل القديمة ، مع اختلافات تمس الجوانب السياسية والاجتماعية ، والتي لها علاقة بتوجهات هذه الأقطار. " (16)

وبهذا يمكن القول أنّ الرواية المغاربية قد ولدت في عزّ التحولات الاجتماعية والسياسية ، التي عرفتها هذه المجتمعات ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، أين ظهرت الرواية باللغة الفرنسية ، وقد قاربت النضج مبكرا ، نظرا لما أحرزته الثقافة الفرنسية من تطور في هذا المجال ؛ بحيث تفاعلت بصفة واضحة مع تطور الوعي الوطني الحديث ، وبروز المؤسسات الثقافية والسياسية الوطنية . أما (الرواية المكتوبة باللغة العربية) (*) فقد تأخر نضجها إلى فترة ما قبل استقلال هذه الشعوب. "

● مراحلها :

من خلال ما عرضناه سابقا لاحظنا افتقاد البدايات الأولى للكتابات السردية في أقطار المغرب العربي ، لمفهوم الفنية بحيث عدت كتابات تقريرية لواقع المجتمع في صورة أقرب إلى المقالة الأدبية ، أو إلى فنّ السيرة . وقد عكست مجتمعة رؤى فكرية وجمالية قاصرة عن فهم جدلية التطور الاجتماعي ، الأمر الذي دفع بعدد غير قليل من أدباء هذا الاتجاه إلى النزوع نحو مثالية مفرطة في أساسها ، أو سوداوية مطلقة ، وقد تفاوتت فترة وجود هذه النصوص الروائية في أقطار المغرب العربي ، لأنها كانت تتقاطع مع أجناس تقليدية ، حتى إن عنصر الحكيم لا يغيب في أكثرها لارتباطها بالإصلاح والنزوع الأخلاقي ، أضف إلى ذلك صعوبة التأريخ الكتابي لها ، وعلاقة ذلك بزمن النشر المتأخر دائما بسنوات . وهذه الظاهرة الفنية القاصرة قد عرفتها الأقطار المغربية الثلاث (تونس/الجزائر/المغرب).

وفي هذا الصدد يشير "نجيب العوفي" إلى أنّ المنظومة السردية تحيل مباشرة على المدلول ، ومن ثمّ على المرجع الذي ينضح ويوح بالدلالة . وهذا النوع من الإرجاع يعتبره أكثر من شفاف ، ويسمى ذلك بـ "الإرجاع المباشر" حيث يقوم التعيين والتصريح مقام التضمين والتلميح على مستوى آلية الخطاب السردية . وإن كان ثمة مدلول ضمني في نصوص هذه المرحلة ، فهو الذي يمكن للقارئ استنباطه من المدلول العيني (الايولوجيا) ، المتحكمة في النص عن وعي من الكاتب ، أو لا وعي منه . ويبرز ذلك أولا بسخونة المرحلة ومركزية الصراع فيها (الذات والهوية الوطنية مقابل الآخر المستعمر) . أما التبرير الآخر فيعود إلى حداثة الكتابة السردية وقلة مراسها، إذ كانت في طور تأسيس معجمها والبحث عن هويتها .

"ولذلك ظلّت بعض الظواهر الأسلوبية - كالتقريرية والمباشرة والخطابية - عالقة بهذه الكتابة ومندسّة في ثناياها وكأن الكاتب معني بالمعنى أكثر ممّا هو معني بالمبنى . وبالتالي يصبح هذا الإرجاع قريبا ممّا يسمى بـ "دلالة المطابقة" ، أي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، كما تجعل هذه النصوص قريبة من مصطلح "الانعكاسية". إلا أنّه لا يمكن استبعاد أنّ تطور الوعي الوطني - خاصة بعد الحرب الكونية الثانية - قد أسهم في نضج كثير من النصوص الروائية المغاربية ، على الأقل من حيث التركيز على مواضيع بعينها ، وتأطير رؤية واعية نسبيا بالواقع مع إدراك أولي بحدود الأجناس الأدبية ، حيث أطلق أسر هذه النصوص ، فتخلّصت من عقد الشّعور إلى جانب الانفتاح الثقافي على العالم الغربي آنذاك . ولكن هذا لا يعني من جانب آخر أنّها أصبحت تتوفر على السمات الفنية الكاملة لهذا الجنس الأدبي .

لقد حافظت الرواية المغاربية على البناء الكلاسيكي ، و لم تتخلص كلياً من بعض السقطات ، كاللغة الوصفية الموعلة في التقريرية والحوار الخارجي الذي لم يلامس عمق الذات ، والاكتفاء بدائرة المضامين الوطنية والثورية التي أخرجت تطوّرها فنيا كما في الجزائر تمثيلاً ، وقد أشار لذلك "محمد مصايف" وهو يجلّ كتابات وطار الأولى بقوله :

"إن وطار كاتب فكرة بالدرجة الأولى ، وهو وإن كتب فإنّما ليعبّر عن موقف فكري يشغله منذ زمن ، ولعلّ هذا ما يسمح له أحيانا باعتبار شخصياته شخصيات واسطة." (17)

ولعلّ الشيء نفسه ينطبق على بنية النص الروائي في تونس ، خاصة في رواية من الضحايا للعروسي سنة (1956م) . أما في المغرب فإنّ أكثر النقاد يذهبون إلى تأسيس هذه الكتابات مع رواية "الطفولة" لعبد المجيد جلون سنة (1957م)، و"غادة أصيلا" لعبد العزيز بن عبد الله ، و غيرها من النصوص التي نزعّت إلى إحياء

التاريخي في خطابها السردي ، للمحافظة على مقومات هوية المجتمع المغربي اللغوية والدينية والتاريخية والحضارية التي كان الاستعمار يسعى بدأب إلى طمسها.

واستنادا إلى ما سبق ذكره ، فإنّ مراحل الكتابة الروائية في هذه الأقطار يمكن تقسيمها إلى ثلاث محطات:

- **نصوص الثلاثينات:** وقد طغى عليها ملمح الصور القصصية ، والقصور من حيث بناء الشكل السردي ، وإن كانت تنشد الإصلاح وانتصار القيم الأخلاقية.

- **نصوص الخمسينات:** وهي نصوص بدأ من خلالها هذا الجنس في أقطار المغرب العربي يبحث عن هويته وخصوصيته ، خاصة بعد بروز الوعي الوطني ، فأضحت هذه النصوص تشكل لنفسها رؤية ، رغم ضبايبتها في البداية نتيجة غياب التفاعل كليا مع الأحداث . ولكنّ المميز في هذه الكتابات أنّها كانت تحتفل بالمضامين وتراهن على القيم الوطنية.

- **نصوص ما بعد السبعينات :** وهي نصوص أضحت تتخلّص شيئا فشيئا من ثقل المضامين الكسيحة ، لتزواج في البداية بين الشكل والمضمون ، متأثرة في ذلك بأطروحات النقد المحلي آنذاك ، ولعلّها نصوص أصبحت تلامس بعض إشراقات الكتابة الفنية ، وخصوصية السرد الروائي. " (18)

ولعلّ هذه المرحلة في رأينا قد شهدت تحولات فنية ، بعد تراجع سيطرة المضامين ، والرؤية الإيديولوجية التي أطرت ملمح الكتابة النثرية في أقطار المغرب العربي ، بحيث أضحت أكثر نصوص هذه المرحلة من فترة الثمانينات تطرح أسئلتها الجديدة ، لتتجاوز بعد بحث دؤوب عتبة الروائي المغربي التقليدي ، بحيث وجدنا هذه الأسئلة قد تخطت الفردي إلى الإنساني والمحلي إلى العالمي ، وركّزت على الكيان والهوية . ويمثل هذا النمط التجريبي في الكتابة الروائية المغاربية عددا من الكتاب كفرج الحوار ، وإبراهيم درغوئي ، أحمد المديني ، ومبارك ربيع ، وإبراهيم الكوني

وأحلام مستغامي ، وواسيني الأعرج ، وولد ابنو في موريتانيا." (19) وهي كتابات تنشد التجريب ؛ أي البحث عن صيغ جديدة لبناء سرد يتجاوز منفتح على أكثر من رؤية . ولعلّ هاجس التجاوز في الكتابة المغاربية الجديدة يمثل سمة من سمات حدائتها ، ويعكس في جوهره "نزعة إلى مراجعة السائد من مفاهيم الممارسة الروائية ، وإعادة النظر في المؤلف من أدواتها الفنية ، وأدوارها ومقاصدها في مرحلة تاريخية تميّزت بتحوّلاتها العميقة ، وتغيّراتها محلياً وعالمياً." (20)

الهوامش :

- 1 ينظر: سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة - الوجود والحدود - ط1، منشورات الاختلاف الجزائر، 2012، ص11.
- 2 ينظر: محمد فهمي حجازي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، دط، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، دت، ص32.
- 3 رفاة رافع الطهطاوي: تخلص الإبريز في تلخيص باريز ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، 1991م، ص303.
- 4 نبيل سليمان: وعي الذات والعالم - دراسات في الرواية العربية. دط، دار الحوار، دمشق، 1985م، ص5
- 5 المرجع نفسه، ص5-6.
- 6 المرجع نفسه، ص15.
- 7 محمد كامل الخطيب: المغامرة المعقدة، دط، منشورات الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، 1976م، ص139.
- 8 - نبيل سليمان: وعي الذات والعالم، ص141/142
- ينظر أيضا: مصطفى عبد الغاني: قضايا الرواية العربية، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1999م، ص83.
- ومحمد كامل الخطيب: المغامرة المعقدة، ص143.

(*) : هيبون: مدينة نوميدية قديمة بالقرب من عنابة. فيها أطلال رومانية كثيرة. أما سيرتا فهو الاسم القديم لقسنطينة. وكانت عاصمة الدولة النوميدية. وغوغورتية: أمير نوميدي قاتل الرومان طويلاً حتى وقع في أيديهم فقتلوه.

10 - ينظر الرابط: <http://www.jadaliyya.com/pages/index/>

- 11 - عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013م، ص09.
- 12 - المرجع نفسه، ص19.
- 13 - المرجع نفسه، ص20.
- (*) يرى عبد المالك مرتاض بأن بدايات القصة القصيرة الجزائرية المكتوبة باللغة العربية ترجع إلى سنة 1925م مشيراً إلى محاولة " محمد السعيد الزاهري" القصصية والتي حملت عنوان " فرانسوا والرشيد" والمنشورة في جريدة الجزائر (ينظر: عبد المالك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص07).
- 14 ينظر: عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، ص32.
- 15 ينظر سعيد يقطين : الرواية العربية الجديدة - الحدود والوجود، ص25.
- 16 عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، ص33.
- (*) في الجزائر مثلاً يرى الناقد الأكاديمي " عمر بن قينة" بأنّ النشأة الجادة لرواية فنية ناضجة ارتبطت برواية (ريح الجنوب) وقد كتبها (عبد الحميد بن هدوقة) في فترة كان الحديث السياسي جارياً بشكل جدي عن الثورة الزراعية، فأنجزها في (5 نوفمبر 1970م) تركية للخطاب السياسي الذي كان يلوح بآمال واسعة للخروج بالريف من عزلته. (ينظر: عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص198).
- 17 ينظر: محمد مصايف: القصة القصيرة العربية الجزائرية في عهد الاستقلال، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص97 نقلاً عن: عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، ص35.
- 18 عبد القادر بن سالم: بنية الحكاية في النص الروائي المغاربي الجديد، ص36.
- 19 بوشوشة بن جمعة: التجريب وارتحالات السرد الروائي المغاربي، ط1، المغاربية للنشر، تونس، 2003م، ص32.
- 20 // // :اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ط1، المغاربية للطباعة والنشر، 1999م، ص07